دموع قديمة

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ دريني خشبة

جلس الوالد السعيد يسمر إلى أولاده السعداء حول منضدة كبيرة فى الردهة الفسيحة المزدانة بصور العظماء وأعلام الفكر . وكانت ثريات الكهرباء تسكب أذوابها على الوجوه المصغية إلى الحديث الساحر الجذاب ، يلقيه إسماعيل أفندى عبد الرءوف بطريقته الرائعة وأسلوبه القوى وعبارته الهادئة فينفذ بكل ما فيه من جمال إلى أفئدة بنيه

وكانت ليلة من ليالى الصيف المقمرة . وليالى الصيف المقمرة فى مدائن الوجه القبلى عامة وفى مدينة المنيا عروس مصر العليا خاصة تشبه ليالى القدر .. لأنها ليالى الأحلام والمحبة والشعر والسمر الجميل الحلو الذى تهدهده أغانى الصعيد الفتانة ، وتحمله نسائم الصحراء فترطب به القلوب والأكباد

لله ما أروعك يا قمر الصعيد ! ولشد ما كان آباؤنا معذورين فيك حين اتخذوك إلهاً !

خونسو !

هكذا كانوا يُسَبِّحون لك ويضرعون بأكفهم إليك ، ويتمنون عليك الأمانى !

فكم سطرت فى أديمك التلألئ من قصة حب يا خونسو الجميل ، وكم شهدت دموعاً تذرفها عيون مُسَهَّدة تحت ذَوْبك الفضى وهى لا تجد أحداً غيرك تجعله مستودعاً لأسرارها ، فتشكو إليك بثها وهى واثقة بك ، مؤمنة أرسخ الإيمان بألوهيتك التى تمسح الدموع وتكتم الأسرار ولا تفشى ما تؤتمن عليه من بنات القلوب !

نظر إسماعيل أفندى إلى القمر الساطع خلال الشرفة الكبيرة ، وظل برهة مسبوهاً كأنه فى حلم ، ثم اقترح أن يذهب الجميع إلى الحديقة ليجلسوا ثمة تحت قمر المنيا وسماء المنيا ، وليشرفوا من ربوة الخلد على النيل القديم المقدس الممثل فى هدوء ودعة لوحى خون[1] العظيم

كان إسماعيل أفندى فى مستهل حياته ضابطاً من ضباط البوليس ، وكانت له سطوات كان صداها يتجاوب فى فضاء قلبه ، فتارة يبتسم وتارة يتجهم ، وتارة يشرد لبه ... وهكذا كان يبدو أثر ذكرياته على وجهه حين ينفعل بها

وكان يقص لأبنائه بعض مجازفاته فى مطاردة اللصوص إذ هو معاون بوليس بندر طنطا منذ ثلاث وعشرين سنة ... وكانت طريقته فى القصص طريقة جذابة شائقة ، ولذلك كان أبناؤه يصغون إليه إصغاء تاماً ، وكانت القصة — أو الحادثة — التى يروى وقائعها قصة أخلاقية رائعة ممتلئة بالمخاطرات التى يزيدها ظلام الليل ، ونقيق الضفادع ، وعواء الذئاب فى ريف الغربية الشاسع روعة ورهبة .

---

(١) خون وخونسو من أسماء القمر عند المصريين القدماء ...

لكن إسماعيل أفندى سكت عن الحديث فجأة ، وانتظر أبناؤه أن يصل قصته ، بيد أنه لم يفعل ، وبدل أن يتكلم راح ينظر إلى القمر ، أو إلى خونسو بلغة المصريين القدماء ، كما كان ينظر إليه عُبّاده الأولون ... ثم راع الأبناء الواجمين أن يذرف أبوهم عبرة ترقرقت فوق خديه الشاحبين ، لم يستطع أن يمنعها من أن تنذرف .

ولم يجرؤ أحد من الأبناء أن يسأل أباه لماذا يبكى ، لكن أمهم لم تبال أن تفعل ...

— أوه ! ماذا ؟ لعلك أسفت لأنك تسببت فى إعدام اللص ؟

— أبداً .. آه .. أجل .. والله لقد آلمنى ذلك !

— وله ؟ أليس يستحق القاتل أن يُقتل ؟

— قد يستحق القاتل أن يقتل ، لكن كثيرين من القتلة لا يستحقون أن يقتلوا .

— إذن تريد أن تضع شريعة جديدة ...

— لست أحاول ذلك .

— ولكن قل لنا أولاً : لماذا أحزنك إعدام القاتل إلى هذا الحد ؟ !

— لقد ترك أسرة شقية لا عائل لها غيره .

— ولِمَ لَمْ يلتمس عيشه من طريق حلال ؟

— ومن يدرينا أنه لم يفعل ! لا شك عندى أن أكثر لصوص بلادنا مضطرون إلى هذه الدناءة برغمهم .

— ومنهم المجبول عليها وهو فى غير حاجة إلى السرقة .

— هذا حق لكنه قد يكون معذوراً كذلك !

— كلام عجيب ، وأعجب منه أنه يخرج من فم رجل كان ضابط بوليس فيما مضى ... وكيف يكون معذوراً وهو فى غير حاجة إلى السرقة ؟

— قد يكون معذوراً لأنه ربما نشأ فى منزل يعلم الإجرام !

— فلسفة جديدة !

— ليست فلسفة لكنها الحقيقة !

— وكيف ؟

— لو علمنا الناس وحاربنا الفقر لانتفت الجريمة

— وما علاقة المنزل بكل هذا ؟

— المنزل هو البناء والسكان ، وما دام البناء غير صحى فسيظل الجسم غير صحيح . وما دام الجسم غير صحيح فسيظل صاحبه يفكر تفكيراً سقيماً ملتوياً ، ومع ذلك فهو لا يفكر إلا فى الشر والحسد والحقد و ... الجريمة ... هذا من جهة البناء ... ومن جهة السكان ، فهم غالباً امرأة جاهلة شريرة ، وابنة أجهل من أمها تريد أن تتزوج بأية وسيلة إذا دب الحيوان فى أصلابها ... ثم أبناء متخاصمون متنافرون لا يرحم بعضهم بعضاً ، ولا يريد أحدهم الخير للآخر ، لا سيما إذا كان أحدهم متزوجاً ...

— أرجوك أن تدع هذا كله ... ولكن ماذا أبكاك ؟ أحقيقة أنك تألمت لأن الرجل ترك أسرة لم يكن لها عائل غيره ؟

— هذا هو !

— أبداً ! ...

— إذن فماذا تحزرين ؟

— أحزر ؟

— أجل

— لابد أن فى المسألة سراً ، وقد حاولت إخفاءه عنا بهذه الفلسفة فى أصل الجريمة !

— أبداً

— أبداً ... هل هذا صحيح ؟

— وماذا يهمني أن أقول كل شيء عن سر حدث منذ ثلاث وعشرين سنة ؟

— ليس يهمك شيء ؟

— بلى ... لا يهمني مطلقاً ...

— على كل، شكراً للقمر العجيب الذي أبكاك !

* * *

وقبل أن تنهض الأسرة المباركة لتنام ، وكانت الساعة توشك أن تدق الحادية عشرة سُمع صوت سيارة تقف عند باب الحديقة ، فأومأ إسماعيل افندى إلى الخادم لينظر من المقبل

من ؟ !

سيدة نَصَف[1] مُلَثَّمة بلثام أسمر خفيف يداعب النسيم حواشيه ، وفتاة ناهد فى مقتبل الصبا وشرخ الشباب ، ترفل فى ثياب ثمينة تدل على السعة والثروة والعيش الناعم المخفرج ... ثم شاب سامق كالرمح يثب فى خطاه كذكر الحجل ، عليه بذلة رسمية مما يلبس تلاميذ مدرسة البوليس ، أخذ القمر يراقص أزرارها الصفر النحاسية ويغازل أشرطتها الحمر الزاهية

— مرحباً مرحباً ، لعلكم فضلتم أن تستريحوا عندنا !

— شكراً يا إسماعيل بك ! ألا تستطيع أن تذكر من أنا ؟

— أنت ! ! ... أهلاً وسهلاً ... إجلسوا أولاً ... أ ... لعل الطقس ملائم هنا ... أو ... تفضلوا فى حجرة الجلوس يا حامد ... يا حامد ... أودة الجلوس يا ولد !

— كلا ، كلا ... لا داعى ... صافحى أباك يا إحسان ... قبلى يده ! هذا هو أبوك يا وجدى ...

ما هذا الظلام الحالك الذى انتشر فجأة فى عينى إسماعيل ؟! إحسان ؟! من إحسان يا ترى ؟!

لقد وجم إسماعيل وجوماً شديداً ، ووقفت العائلة السعيدة ترمق القادمين بأعين دهشة ساهمة ... من هؤلاء يا ترى ؟ ! لقد تساءل الصغار كل بينه وبين نفسه : مَنْ هؤلاء ؟ ! مَنْ إحسان ؟ ومَنْ وجدى ؟ ومن هى هذه السيدة ... ؟ إن السيدة تقول : إن أباهم هو أبو إحسان وأبو وجدى ، فإحسان إن صح هذا هى أختهم ... ووجدى ... هذا الشاب اليافع المعجب ببذلته العسكرية هو أخوهم ... أخت من الطريق وأخ من السيارة ... وعائلة طرقت باب الحديقة من جوف الليل المقمر

ما هذا يا خونسو ؟ ! ما هذا يا كاتم الأسرار الرهيب ؟ ألم يتفق عبادك على أنك مستودع بنات القلوب الذى لا يفشى منها شيئاً ؟ كيف تفجأ عائلة بعائلة هكذا من غير أهبة وعلى غير استعداد ... ؟! ألا ما أقساك يا خونسو الخبيث الساهر الساهى ! !

تقدمت إحسان إلى إسماعيل افندى فصافحته ، ولما همت بتقبيل يده سحبها فى رفق وتلطف ... ثم تقدم وجدى افندى فصافح الرجل المرتجف المضطرب ، ولم يحاول تقبيل يده ، بل لم يحاول الانحناء القليل اليسير وهو يتناول اليد القاسية الصارمة التى كان يمنى نفسه منذ أن أدرك معنى الحياة وحملها الثقيل بحسابها الحساب العسير

أما سميحة هانم ، أم الأنجال وربة العائلة ، فقد أحست أنها فى مسرح كبير شاسع مكتظ بالرواد ، تضج جنباته بالصفير والتصفيق والصخب ... وأول

(١) النصف التى بلغت الأربعين من النساء

المتصفقين الصاخبين هو ذلك القمر الساطع الساخر في عليائه ، الذي يكاد ينشق قطعتين من شدة الصفير والتصفيق .

لقد راحت سميحة هانم تتفرس في هذا الركب الذي انشق عنه جوف الليل كما تنشق القماقم عن عفاريت سليمان !!

وراحت تسائل نفسها عن هذا الفتى وهذه الفتاة ولدى السيد إسماعيل زوجها العزيز

ثم جعلت تفكر في الرسالة التي وردت باسمها اليوم تحمل إليها نبأ هذا اللقاء المفاجئ العجيب ...
« لقاء سيدة يسعدها كثيراً أن تنال مساعدتها في أمر هام سيجلب السعادة لكثيرين ، وسيشفى جراحاً طال عليها الزمان ما تفتأ تسبب آلاماً لكثيرين ... » ... هذه كلمات من الرسالة الهائلة التي تسلمتها سميحة هانم اليوم واليوم فقط ... لقد تسلمتها في الساعة الثامنة صباحاً ، والساعة الآن الحادية عشرة ونصف مساء ... فكأنه لم يمض إلا نصف يوم وبضعة ساعات حتى تم اللقاء التي أنذرت به — أو خبرت به — الرسالة الهائلة

ولم تكن سميحة هانم تصدق أن وراء زوجها الوفي الأمين سراً عميقاً كهذا السر ، إذ كيف يكون ما جاء في الرسالة حقاً وهذا هو زوجها الوفي الأمين يعاشرها عشرين عاماً لا تدل إلا على الوفاء الجم والمحبة الصافية لها ولأبنائها ... وكيف يستطيع رجل مثل هذا الرجل الوفي الأمين أن يكتم سراً مثل هذا السر في أعماق قلبه فلا يبوح به لزوجته التي هي نصف حياته إن لم تكن حياته كلها ؟!

لقد قرأت سميحة هانم رسالة تلك السيدة التي وصلتها اليوم عشرات المرات ، وكانت تخرج منها في كل مرة بمعنى جديد لم يخطر لها ببال ، ثم كانت تارة تصدّق وأخرى تكذّب ، تصدّق لأن ألفاظ الرسالة ألفاظ حزينة مكتئبة فيها إخلاص وفيها دموع وفيها حسرات ، وتكذّب لأنها لم تعهد في زوجها إلا الأمانة والصدق والبساطة أحياناً . فكيف يستطيع أن يخفي عليها سره هذا وهو سر هائل هكذا ؟

وخُيل لسميحة هانم أن الرسالة مفتوحة أمام عينيها . فهي تتلوها سطراً سطراً وكلمة كلمة . بل خيل إليها أن حروف الرسالة أحلام سوداء عانق بعضها بعضاً ، وأخذت ترقص في رأسها المضطرب هكذا :

حضرة السيدة المحترمة حرم إسماعيل بك عبدالرءوف

« لا تنزعجي يا أختاه فهذه رسالة من أخت ، أو صديقة ، لا تحقد عليك ، ولا تتمنى لك إلا كل خير وسعادة . . . على أنني لست أدري إذا كنت قد علمت قصتي أو عرفت اسمي قبل اليوم ؟ أنا أرجح أنك لا تعلمين من أمري شيئاً ، ولذلك ، فربما تظنين أنني أرسل إليك بهذه الكلمة الحزينة لأحدث في حياتك الهانئة حدثاً يرنق صفاءها لا قدرالله .. كلا يا أختاه ... فلقد صبرت للنكبة التي حلت بي صبراً جميلاً ، وكرست حياتي لإسعاد ولدي مجدي وإحسان ، وسامحت إسماعيل على ما صنع بي ، وإن لم يكن له عذر قط . . . قد لا تظنين أنني أقصد إسماعيل بك عبد الرءوف زوجك المحترم .. إطمئني يا أختاه . . . إنه هو نفس الرجل الذي أعني . . . قد لا يكون عندك خبر بما كان بيننا منذ ثلاث وعشرين سنة ... أوه ! ثلاث وعشرون سنة زمان طويل جداً وقديم ، وإثارة الذكريات التي ترجع

إلى قبل هذا التاريخ هو شيء مؤلم ، ومثير للعواطف . لماذا لا نفضل أن ننسى هذا الماضي ؟ آه ! قد تعصف بنا ضرورة فنثير هذه الذكريات برغمنا ... فمثلاً ... لا تنزعجي يا أختاه إن لم تكوني قد عرفت ماسأذكره لك ... فمثلاً ... لقد حدث أمر قهري بيني وبين اسماعيل بك قبل ذلك التاريخ البعيد ... قد تسأليني ماذا حدث ، وسأريحك حتى لا تفكري طويلاً ... لقد أحبني اسماعيل وأحببته ، وأحب كل منا الآخر حبًّا من ذلك الحب الذي تستعر ناره بسرعة وفي عنف لأنه يصادف قلوباً خالية فيتمكن ويكون جارفاً عارماً قوياً ... حب الشباب يا أختاه ... وأحسبك قد أحببت إسماعيل كما أحببته ، لأنه قبل عشرين سنة كان فتى سمهري القامة ، خلاب اللفتات ؛ وكان في روحه شيء غريب غامض تنجذب إليه أرواح الفتيات في شدة من دون أن تكون لهن إرادة في ذلك ، فلا يلبثن أن يقعن في شراكه كما تقع الحشرة في نسيج العنكبوت ... أخشى أن أملك لأني أطيل عليك ... فاعذريني إن خرجت عن موضوع رسالتي ، لأنني أذكرك بما كان في إسماعيل ، زوج كليهما ، من جاذبية وسحر ، لأن تذكيرك بهذا سيكون أقوى أدلتي عندك على صحة قولي ... ولا بد أنك تذكرين جاذبيته وسحره تماماً ، خصوصاً إذا كنتما قد تحاببتما قبل الزواج .

— نما حبنا يا أختاه ، وسقته دموعنا ، فترعرع وأظلنا كالدوحة الباسقة ... وارتبط قلبانا برباط قوي مقدس ... لكننا لم نصبر على جوى الحب كما يصبر الآخرون . لقد زلت قدمنا ياسميحة هانم . يا لله لماذا أبوح بكل هذا ؟ ... ولما لاحظ المأسوف عليه — أو المغفور له — والدي ما تغير من حالي ، استشاط غضباً ، ودبر لنا حيلة ليجمعنا وإياه معاً ليرى فينا رأيه ... وا أسفاه ! ليته لم يفعل يا أختاه ! لقد جمعنا ليلقى حتفه بيد إسماعيل ! ... أما كيف كان ذلك فهذا قصة طويلة حالكة ما تزال طي الكتمان إلى وقتنا هذا ، وأنا ألخصها لك في كلمات ... لقد احتدت المناقشة بين أبي وبين ... حبيبي ... وهم الوالد المغيظ المجروح في عرضه المطعون في شرفه أن يبطش باسماعيل ، فأخرج من جيبه غدارة محشوة ليفرغ نارها في صدر الشاب ، ولست أدري كيف نسي إسماعيل عند ذلك حبه ، وتنمرت في رأسه عسكريته ؛ فإنه أخرج مسدسه بأسرع من البرق ، ثم أطلقه في رأس أبي ...

— يا للهول ! ... إنني أتذكر الوالد المسكين يا أختاه وهو يسقط إلى الأرض ناظراً إلي ... إلى أنا وحدي ... تصوري أيتها العزيزة موقفي ذلك بين أبي وبين حبيبي ... أستغفر الله ... بل بين أعز الآباء وأكرمهم وبين هذا الحبيب الوحش القاتل ، سافك الدماء ! ... على أن أبي العزيز كان كريماً حتى في موته ... لقد ظل يجود بروحه أكثر من عشر دقائق نسي فيها موقفه ومأساتي ، وذكر خلاصي وخلاص ... إسماعيل !!

« لقد طلب إلي قلماً وورقة ، فأحضرتهما على عجل ، فكتب بيد مرتجفة أنه ينتحر تخلصاً من مرضه ، وسجل الاعتراف بكتابة اسمه في هدوء عجيب وطمأنينة لا يذكرها أحد ساعة الموت !

وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، انحنى إسماعيل يقبله ، فتبسم أبي ثم تمتم : « هل تتزوج كريمة يا إسماعيل ؟ » . فأجهش إسماعيل بالبكاء ثم قال : « إطمئن أيها الوالد فسأتزوجها ، والله على ما أقول شهيد ... »

وقيدت الحادثة انتحاراً كما أراد والدى الكريم الرحيم البار ، ولم يحدث إسماعيل فيما قاسم عليه أبي ، وتزوجنا ، ورشونا المأذون فقيد التاريخ فى صحيفة سابقة ، حتى لا يكون كلام بين الزواج وبين الحادث وبين الوضع ...

وعشنا فى ظلال الحزن أعواماً ثلاثة ، كانت تتمثل لنا الحياة طوالها جحيماً لا صبر لنا عليه ... فقد فترحبنا ، وخمدت جذوته التى كانت تشيع بالكهرباء فى جوانحنا ... وولدت لإسماعيل إحسان ، لكنه لم يرها إلى اليوم ، فهل تصدقين ذلك ؟ وظنى أنه لا يذكر أخاها وجدى ... وجدى الحبيب الذى لو رأيته اليوم لسرك شبابه ، وراقك عنفوانه ... وجدى هذا لا يذكره إسماعيل أبوه ... كما لا يذكر أخته ، لأنه ، عفا الله عنه أبى إلا أن ننفصل قبل أن أضع ابنته بأربعة أشهر ، وكان عمر وجدى إذ ذاك عامين ونصف العام على وجه التقريب

ولم أعارضه فيما رأى ... وأبرأته من كل شىء ، وافترقنا على ألا نلتقى إلا الأبد

وعلمت بعد ذلك أنه خطبك وبنى عليك ، فوالله ما حزنت لهذا ولا ضقت به ، بل ذكرت الله ربى لى ولولدى ، وصليت له من أجلهما

واليوم ... وبعد عشرين عاما يا سميحة هانم ... كبرت عزيزتك — إن رضيت منى هذا التعبير — «إحسان» وتقدم إلى خطبتها شاب رضى الخلق سرى النفس كريم الأرومة ، من أسرة عريقة فى بلدتنا طنطا . وهو طبيب من أشهر أطباء المدينة له جاه وله سمعة طيبة ... غير أنه ، ولا أدرى كيف عرف هذا ، علم أن والد إحسان ما يزال حياً يرزق ، وإنه يقيم فى منزله فى مدينة المنيا كأحسن ما يقيم الوالد الكريم بين أبنائه ... فأصر على وجوب اشتراك الوالد فى خطبة ابنته ، وفى عرسها أيضاً ...

— حاولت يا سميحة هانم أن أثنيه عن هذا الإصرار فأبى ، وقال إنه ذهب إلى المنيا وعرف من سيرة إسماعيل بك الشىء الكثير ... إن جميع أهالى المنيا يمتدحون أخلاقه ويطرون سيرته ، ويضعونه فى الذروة من شرفهم جميعاً ، فماذا يمنعه من المشاركة فى عرس ابنته ، ولماذا لا نلتهز هذه الفرصة الثمينة لنسيان الماضى ؟

— خفت يا أختاه أن أصر على الرفض خشية من العواقب ، وإقصاء لأشباح الذكريات المرة حتى لا تعكر علىّ صفو أحزانى ؟ أجل ! صفو أحزانى يا أختاه ... فقد صار لأحزانى صفو رضيت به ، فأنا أتجرع غصته فى سكون وهدوء وشجاعة ... لأنى أنسى ماضىّ كله فى سبيل حاضرى المستمر ، وهو السهر على تربية وَلَدَىّ اللذين فر أبوهما وتركهما فى عنقى ...

— فماذا تقولين يا سميحة هانم ؟ هل كثير أن عرفت هذا السر المزعج الذى ما أظن إسماعيل قد وقفك عليه ؟ وهل كثير أن أضرع إلى هذا الوالد الكريم أن يشارك فى عرس ابنته مشاركة إن شاء جعلها رمزية ، وإن شاء جعلها فعلية ؟ إن هذا أو ذاك لا يكلفه كثيراً ... فأنا والحمد لله فى سعة ، وقد ترك لى المرحوم والدى أطياناً واسعة وعقاراً عظيماً ومالاً جماً ... فمن جهة المادة لا أريد أن أكلفه شيئاً ، والذى أطلبه منه أن يكون أباً لإحسان يوماً أو يومين ، وأن يذكر تضحيتى فى سبيل ولَدَىّ ؛ فقد رفضت خطبة أطباء ومثرين

ومحامين وقضاة ، وفضلت أن أعيش لوجدى وأن أعيش لإحسان أرعاها بعين الأمومة الحزينة الباكية وأعطف عليهما بالصدر الذى كله أشجان وحشوه آلام وذكريات وأحزان ...

« فماذا تقولين إذن ؟ هل ستكونين شفيعتى لدى هذا الرجل ؟ هل تضمين صوتى إلى صوتك فى سبيل إيقاظه من هذه النومة الطويلة ؟ ! لقد عزمت أن أزوركم فجأة ... و ... وربما لا يمضى طويل حتى أكون عندكم ...

« وتقبلى يا أختاه تحيات أم مهيضة كسيرة ، وقبلات ابن يتيم وأبوه حى ، وسلام فتاة بريئة لم تسعد بوالدها القريب البعيد ! ! »

« كريمة بهاء الدين »

تخيلت سميحة أن هذا الخطاب الطويل مبسوط أمام عينيها ، فهى تقرأه ، ثم تقرأه ، ثم تعيد قراءته عشرات المرات فلا تستغرق المرة أكثر من طرفة عين ، وعجبت كيف يكون ما جاء فيه حقا وكيف تكون هذه السيدة ـ كريمة هانم بهاء الدين ـ حقيقة لا ريب فيها ... ثم تفرست فى الشاب ... وجدى ... ما أحلى هـذا الاسم وما أرقه ! ! وجدى ! ! الثمرة البريئة لحماقة عاشقين ! ! فياترى ، هل يعرف وجدى هذه القصة القديمة المؤلمة ؟ ... إنه قطعة من أبيه ما فى هذا شك ، وها هى ذى ظلال فضية من أشعة القمر تنكسر على جبينه فتعكس السحر من ناظريه ... صورة قديمة كالصورة التى وصفتها كريمة هانم فى خطابها لشباب إسماعيل وجاذبيته وسحره ... ولقد أحبت سميحة هانم زوجها إسماعيل وهامت به بتأثير هذه الجاذبية الغامضة التى كانت تفيض بها روحه كما ذكرت كريمة ... لكن إسماعيل أيضاً كان يبادل زوجته حباً بحب وهياماً بهيام ... فياترى ، هل كان يذكر كريمة فى فصول غرامه التى كان يملأ بها أذنى سميحة ، ويرتلها على سمعها ترتيلاً ؟ ؟ أليس فى هذا المشق بعد المشق نفاق على القلب وتدليس على الروح ؟ ؟ لقد تكلم إسماعيل عن الجريمة والمجرمين الليلة ، وقد سكت فجأة وهو يقص على أبنائه إحدى مخاطراته ... فلماذا سكت فجأة يا ترى ؟ ! أيكون قد ذكر هذه المأساة الدامية ؟ ! إنه لابد قد ذكرها إن لم يكن قد ذكر ما هو أشد منها هولاً وأغزر دماء بريئة ؟ ! ولكن وجدى ... هذا الفتى المشوق السمهرى ما ذنبه ؟ ؟ كيف ساغ لإسماعيل أن يتركه ويترك ما فى بطن أمه ثم يفر كالجبان النذل ليتزوج مرة أخرى بدل أن يعتكف فى خلوة أو يعتزل الناس فى جبل أو دير ؟ ! ألا ما أشقى الإنسانية بكثيرين ممن ينتسبون إليها ظلماً وهم إلى وحوش الغاب أقرب !

ثم هذه الفتاة الجميلة إحسان ؟ ! كيف نشأت طوال هذه السنين ؟ قد يظن الإنسان أنها كانت تكون أشد شقوة لو أنها كانت فقيرة ، والإنسان حين يظن هذا ينسى أن ملء العالم ذهباً لا يعوض على فتاة مثل إحسان تلك الأبوة التائهة ... ! إنها لابد قد سألت نفسها ألف ألف مرة : أين أبى مادام موجوداً ؟ ولماذا لا يعيش مع أمى كما يعيش الآباء مع الأمهات ؟ ولماذا يكون أبى بهيا هكذا وكل الآباء بشر لهم قلوب وفى قلوبهم رحمة وعطف ومحبة ؟ ! لابد أن إحسان قد سألت نفسها هذه الأسئلة ألف ألف مرة ، بل هى تسألها صباح مساء وفى كل لحظة . وليس صحيحاً أنها لا تعرف ما الأبوة لأنها لم تجربها ولم تنعم بها ... ليس صحيحاً هـذا ... وإلا فقد بطل علمنا بالله لأننا لم نره ، فإن إحسان

تعيش كما يعيش أترابها ، ولكل من أترابها والد بر رحيم محب ودود ، لكن إحسان ليس لها أب لا بر ولا غير بر ، وإذا سألت أمها أجابتها بدموع غزار حرار ، ثم لم تشأ أن تكذب ابنتها ، فتصرفها عن سؤالها فى رفق وعطف وحزن وتلدد

ما هذا الوالد اللئيم الذى يفر من أبنائه كما تفر ذكران القطاط والكلاب والحمير و ... و ... ؟!

كيف يسمو علينا نحن الآدميين الحمام والعصافير وسائر الطير وهى من مراتب الحيوان ولو أن لها أجنحة ؟!

* * *

— «صافحى أباك يا إحسان!! قبلى يده!! هذا هو أبوك يا وجدى ! » قد يكون الإنسان جالساً مع بعض صحبه فيسقط عليه جلمود من الصخر فجأة فلا يحس الألم فى الحال ، لكنه يقع فى شبه غيبوبة عميقة إذا أفاق منها بدأ يصيح كالطفل ، وقد لا يشعر أين مكان الألم من جسمه ، لكنه كلما ذكر أن حجراً سقط عليه من علو استفظع الأمر واستمر فى الصياح ... وهكذا كان حال إسماعيل افندى حينما سمع السيدة تقول هذه العبارة الهائلة : « صافحى أباك يا إحسان ! قبلى يده ! هذا هو أبوك يا وجدى ! »

إنه فوجئ لأول مرة فى حياته بأن له ابنة تُدعى إحسان ! لم يكن يعرف ذلك من قبل ، وإن يكن يعرف أنه ترك كريمة حاملاً ... يا لقسوة الفؤاد الذى ينسى رجولته تحت إصر الجريمة ؟ ! لقد نزل عليه الخبر كما يصطدم رأس السارية بعامود من حديد أو جدار من الحجر الصلد ، وقد أسلمه ذلك إلى غيبوبة عميقة زاد فى عمقها أنها حدثت أمام زوجه وأبنائه ...

لقد نظر كل من هؤلاء نظرات تائهة إلى السيدة الملثمة فى ضوء القمر ، فلما قالت قولتها ، انصرفت نظراتهم متبعثرة تنتثر على وجه أبيهم ووجه إحسان ووجه وجدى ... لكنها كانت أعلق بوجه الوالد من أوجه الغرباء المفاجئين !

هل عرفت الماء الآسن الراكد حين تقذف فيه بحجر ماذا ترى على سطحه من تغيرات ؟ ! لقد كان وجه اسماعيل أفندى يشبهه تماماً ! بل كان وجه اسماعيل أفندى يتقلص مرة ثم تعلوه كآبة ثم تشيع فى أساريره ظلمات فتجعله كالبحر اللجى ... ففمه مفغور كالهوة السحيقة بين كل موجتين ، وعيناه كأنهما زورقان يتلاعب بهما الماء ليقذف بهما من حالق ...

— لماذا لا تحيى أبناءك يا إسماعيل بك

— أبنائى ؟! ...

أجل ... إحسان التى لم ترها قبل اليوم ، ووجدى الذى كان أعز مخلوق عليك فى الحياة ؟... ألا تذكر ؟! هل نسيت ؟ عجباً ! هل نسيت كل شىء ؟ ...

— ومن أنتِ ؟ ...

— من أنا ؟ ... أنا أم ولديك هذين ! أنا كريمة بهاء الدين !

— آه ... كريمة !

ثم التفتت كريمة إلى سميحة هانم فقالت :

— هل وصلك خطابى يا سميحة هانم ؟

— أجل يا عزيزتى لقد وصلنى

— لعله لم يزعجك !

— وكيف يزعجنى وقد كتبته عزيزة جداً مثلك؟

— عفواً ... كم كنت أفضل ألا أسبب لكم فكراً قد يسوؤكم !

— ولماذا يسوؤنا أن نعرف ؟

— هذا أمر طبيعي إن لم يكن إسماعيل بك قد ذكر لك شيئاً من ماضيه

وهنا تدخل إسماعيل قائلاً :

— على أنني لا أدرى ما الذى جعلك تذكرينى بعد عشرين سنة ؟

— وهل كنت تظن أن الدهر كله يفصل بينك وبين أبنائك ؟

— من هم أبنائى ؟

من هم أبناؤك ؟ إسماعيل بك ! أفق تماماً ، ولا تجعل البلوى باوتين بإنكارك ... قد تحاول أن تقطع الزمن فتجعل لك ماضياً تحب أن تجهله أسرتك الثانية براءة من أسرتك الأولى، ثم تجعل لك حاضراً تشعره أنك ملاك ... إحذر أن تحاول هذا أيها الرجل ... على أنني لست أفهم لماذا تحاول ذلك ؟ لقد جاهدت طويلاً فى أن يظل وجدى يذكرك ، ولا ينساك لأنك أبوه ، ومن لا والد له فهو لاشرف له وإن يكن هو مظلوماً فى ذلك. أما إحسان فهى ابنتك التى فررت من أبوتها فظلمتها وهى لم تر الدنيا بعد ، فهل تريد أن تنكرها هى أيضاً ؟ قبل أن تفعل ، تذكر أنك كنت رجلاً رسمياً من رجال الحكومة ، ففكر فى العواقب التى تبنى على إنكارك ... وأريد أن أطمئنك ... إنى لم أحضر إلى هنا لأنغص عليك صفوك ... أو لأقتص منك ... لا ... لقد نسيت كل شىء ... لقد علمتنا مأساتنا الخير المحض ، فأنا ووجدى وإحسان نمرح دائماً مذ فررت . فى رعاية الله وحمايته ... وقد عرفت أنك تزوجت من سميحة هانم فى نفس الشهر الذى بنيت عليها فيه ، فلم يثر فى قلبى أى حقد عليكما ، بل — والله شهيد على ما أقول — لقد طلبت لكما السعادة كما طلبت لنفسى المعونة على تربية ولدىّ ... وكان يبكينى فقط أن يسألا عن والدهما أين هو ؟ فأقول لهما إنه حى يرزق ، وهو سعيد ، فاطلبا من الله أن يزيده سعادة ، أليس كذلك يا وجدى !

— أمى !

— ماذا يا بنى ؟

— أيريد أبى أن ينكرنا ؟

— سله أنت يا بنى ... إنه لابد مجيبك بالحق ... فهذه لحظة لا يستطيع فيها لسان آدم أن يفترى ... إنها لحظة من لحظات الله !

— أبي !

— ... ؟ ...

— ألست أنا حبيبك وجدى ؟

— وجدى من ؟!

— حبيبك وأعز الناس عليك، وجدى الصغير. ألست أنت الذى كتبت هذا الكلام تحت صورتى هذه من سبعة عشر عاماً ؟!

ومد الشاب يده بالصورة بعد أن أخرجها من جيبه ، ثم أعطاها لأبيه ... ولكن الأب الشارد كان ما يزال فى غيبوبته فلم يمد يده ليتناول الصورة القديمة العزيزة التى طالما طبع عليها آلاف القبل ، وسفح عليها آلاف العبرات قبل أن يعتزم الفرار من كريمة .

— لماذا يا أبى تأبى أن تتناول الصورة ؟ هل صرت قاسياً إلى هذا الحد ؟ ... تكلم أرجوك ... لقد كبرت ، ولى سبعة عشر عاماً أو أكثر لم أرك. ألم تفكر فى كما فكرت فيك ؟ كم كنت أتمنى أن أراك أيها الوالد ... أهؤلاء ... أولادك ؟ ... لله

ما أسعدني بهم ! كم كنت أتمنى أن يكون لي أخ فهؤلاء إذن إخوتي ! تكلم يا أبي .. إني أحس كأنما قلبي ينجذب إليك ...

بيد أن الرجل وقف متخشباً بل وقف كأنه صنم من أصنام بوذا ... تفكيرة عميقة لكنها من صخر ، ولا يهم أن تكون من مرمر ! وهنا تألمت سميحة هانم لضراعة الشاب الذي يشبه أباه شبهاً كبيراً ، فقالت والهم يعتصر فؤادها :

— لم لا تجيب يا إسماعيل ؟ أليس وجدي ابنك ؟

— ليس ابني ولا أعرفه !

— عجيب جداً ... لكنه يشبهك كثيراً ...

— هذا لا يهم !

— أرني الصورة يا وجدي أفندي !

ثم تناولت الصورة وجعلت ترمقها في ضوء القمر ، فراعها أن يكون الخط خط زوجها ... لكنها لم تعجل ، بل دعت الجميع ليدخلوا فقد أخذ الموقف يتحرج ، ولم يُحَيِّ القادمون بأية تحية ، وليس هذا من عرف الصعيد الكريم المضياف ... وحاولت كريمة هانم أن تعتذر فأقسمت سميحة أن تقبل دعوتها ... وهنا بدأ الجميع يتحركون كالأشباح المتعبة إلى الداخل ... وبقي إسماعيل فلم يتحرك .. وبقي معه ولداه .. وجدي .. وعُبيد

ولما جلسوا قليلاً في الغرفة الفسيحة المؤثثة ، وشربوا عصير البرتقال المثلوج ... دار الحديث فكان ذا شجون :

— مرحباً بك يا كريمة هانم ... ما شاء الله الآنسة إحسان جميلة جداً ... إن شاء الله ربنا يتمم بخير .. الله ! إن لها خالاً في خدها .. مثل إسماعيل تماماً ... وفي نفس الموضع

— شكراً لك يا سميحة هانم ... أرجو ألا أكون قد سببت لك قلقاً

— أي قلق يا عزيزتي ! كلا والله ... عشمي ألا تتأثري من إسماعيل ... إن الموقف مريك من غير شك ...

— ولماذا يرتبك ؟

— لماذا يرتبك ؟ على الأقل لأنه لم يذكر لنا عنكم شيئاً مطلقاً ... ثم هذه السنون العشرون ... إنها عمر بأكمله يا عزيزتي ...

— ألم يقرأ خطابي يا سميحة هانم ؟

— خطابك ؟ ... بل أنا الذي قرأته !

— وهو ؟

— لم يقرأه ... بل لم أذكر له عنه شيئاً

— ولمه ؟

— لأنني لم أصدقه بادئ الرأي ... إنه قصة مشجية ، أليس كذلك يا كريمة هانم ؟

— لكن لهجته الباكية تدل على أنه حق !

— الآن فقط عرفت أنه حق .. بل ربما لم يحو كل الحق يا كريمة هانم ... ما شاء الله ! إن صورة وجدي وهو صغير تشبه صورة عُبيد تماماً

— ومن عُبيد ؟

— عُبيد ابني ، أخو وجدي !

— والخط الذي في ظهر الصورة !

— هو خط إسماعيل ، ليس في هذا شك !

— إذن ... فإليك هذه الصورة أيضاً ...

— آه ... آه ... هيه !

— آه ماذا يا سميحة هانم ؟ !

— هذه هي صورتكما !

— هي بعينها ... هل كنت تعرفينها ؟

— لقد كشفتها في كتاب قديم بعد (دخلتنا) !

— ثم ...

— ثم أنكر أن تكون السيدة شيئاً إلا ...

— إلا ماذا ؟

— ... ؟ ...

— لعله أخبرك أنها حظية أو واحدة من صويحباته ! !

— لا تحزني يا كريمة هانم ... الحق أن زواجكما بعد الحادث المؤلم الذي ذكرته لي كان ينبغي ألا يتم !

— وأين كنت أذهب بوجدي يا أختاه ! ؟

— وجدي ... آه ... بل كان ينبغي أن تتزوجا ! ما ذنب وجدي ؟

— لو لم يكن في أحشائي منه شيء لما آثرت أن . .

ثم حبس الدمع منطق السيدة المحزونة فلم تستطع أن تكمل

— على كل حال لقد برهنت على نبل وأرومة مجد يا كريمة هانم !

— شكراً لك يا أختاه ! ماذا كنت أستطيع غير هذا ؟ !

— عجيب جداً أمر إسماعيل ... الآن عرفت سر أحلامه !

— أحلامه ... ؟ !

— أجل ... لقد كان يحلم في اليقظة وفي المنام . . وكان يتمتم بكلمات لا نفهمها وعيناه مفتوحتان جاحظتان

— ولكن لماذا يحاول أن ينكرنا ؟ لعله ظن أننا في حاجة إلى عونه المادي ؟ !

— وإذا كنتم كذلك فماذا يمنعكم من طلب هذا العون ؟ إنه ملزم بهذا بل هو ملزم بأكثر من هذا ... إنه ملزم بنفقة ابنته طوال هذه السنين ، وأحسب أن نصف ثروته لن تقوم بذلك !

— ومع ذلك فأنت التي تقولين هذا !

— ولم لا أقول هذا وقد خيل لي أنه ربما فرمنا مثلما فر منك ؟ !

— لا ... لا قدر الله ... ولماذا يصنع ؟ إنه لم يفر منا يا أختاه ، بل هو قد فر من الذكريات ، ولولا هذا ما أعفيته ...

— هذا ضعف ، فقد غفر له والدك قبل أن يموت وأنجاه من القصاص العادل . . . إن هذه يد لا يجحدها إلا لئيم ...

— سيدتي . . . أنا أعتذر . . . يبدو لي أنني ورطتك في الثورة على زوجك ...

— بالعكس ... حقيقة أننا كنا نعيش سعداء ، لكن أحلامه كانت تنغص علينا صفونا ، وكان جهلنا أسبابها يرهقنا بل يزعجنا ... لقد كانت تنتابه حالات من الذهول والشرود هي أشبه بالجنون ... فكنا كلنا نبكي من أجله ... ولن تنسى مرة حين سمعناه يصرخ في سكون الليل طالباً المغفرة من ابنه ... قائلاً : يا رب ... إغفر لي يا بني ... ليست خطيئتي أنا وحدي ... إصفح عني يا وجدي ! ... هذا الغلام الذي لا أشك الآن في أنه هو ... ولقد جعل مرة يضحك في رمضان ساعة الأصيل ويقول : نفاق ... رياء ... أنا منافق ... لقد كنت لا أصوم رمضان . . . ولكني أصومه منذ عشرين سنة ، وكنت لا أصلي كذلك ، ولكن هانذا أصلي منذ عشرين سنة أيضاً . فلماذا ؟ ! لماذا أعبد الله على هذا النحو ؟ ! أليغفر لي ؟ . . . أبداً . . . أبداً . . . لن يغفر الله لي .. فالآن يا سيدتي عرفت السبب .. لقد كان يخفى عنا كل شيء ، فأما وقد عرفنا كل شيء فسيكون يسيراً جداً أن نعالجه ... لقد كسبنا كثيراً ...

— عجيب جداً ... إنك زوجة كاملة !

— أشكرك .. بل أنا شريكتك فى هذا الأمر ورجائى أن تليني معه ، فهو رجل طيب ، وقد تنفعينه أكثر من أى شخص آخر .

ماذا حدث فى الخارج ؟

ما هذا الصياح الشديد ؟

— كلا ... كلا ... لا تقتلنى يا وجدى ... حرام عليك يا بنى ... أنا أبوك ... كيف تبوء بإثمى ؟ ... تعال ... سأقدم لك الدليل الذى يبدد شكوكك ...

كانت هذه الكلمات ترتفع ثم ترتفع ... ثم دخل إسماعيل أفندى فجأة ... وتناول صورة كبيرة ذات إطار مذهب فكسرها ، وفض ألفافها من خلف ، ثم أخرج من داخل ذلك كله صورة متوسطة فقدمها للفتى الذى كان يعدو وراءه ... لوجدى !

— ها أنت ذا يا بنى ... أليست هذه صورتك بينى وبين أمك ... أليست هى نفس صورتك وأنت طفل ؟ لقد صورت الصورتان ، هذه والتى معك ، فى يوم واحد ... فاطمئن يا بنى ... إنك ابنى وأنا أبوك

وتناول وجدى الصورة من يد أبيه فحملق فيها ثم ذهب إلى أمه باسماً فقدم إليها الصورة قائلاً :

— لقد تكلم والدى كلاما لم أصدقه ... يبدو لى أنه متعب ، أو مريض ... أصحيح ما قال يا والدتى

— ماذا قال لك يا بنى ؟

— لا داعى لذكر ما قال ... لا بد أنه متعب ... إن هذه الصورة التى كان محتفظاً بها هى حسبى ... ألست ابن حلال يا أمى ؟!

فعرفت الأم كل ما قال زوجها القديم . لقد علمن الشاب بالسر الهائل . ربما ذكر له أنه ابن إثم ، وثمرة جريمة . ولذلك ثار وجدى وحاول أن يقتل أباه

* * *

وسافرت الأسرتان إلى طنطا للاحتفال بعرس إحسان ... وحينما تقدمت الفتاة لتأخذ من والدها هديته — ألف سهم من أسهم بنك مصر — نظر إليها أبوها نظرة عميقة صامتة ، ثم طبع على جبينها الجميل قبلة طويلة ... لكنه سقط إلى الأرض مغشياً عليه . .

وتقدم الدكتور العريس فجثا بجانب الرجل وأخذ يفحصه ، ثم أمر بإخلاء الردهة لتجديد الهواء ...

وتوفى إسماعيل أفندى عبد الرءوف فى مدينة المنيا العامرة بعد عرس ابنته بعشرة أيام ، بعد أن كانت فى معالجته حيل الأطباء ...

لكنه مات كريماً آخر الأمر ، وترك خلفه قلوباً صحيحة

درينى خشبة

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشا